التحولات السياقية عند سيبويه وأثرها في إنتاج المعنى

مصطفى عبد الهادي عبد الله قطنش

كلية التربية - جامعة بني وليد

مقدمـــــــة:

ولدت فكرة هذا البحث في قاعات الدرس!.. وكان الدافع من ورائه تلمُّس وجود هوة معرفية وفجوة علمية بين أنواع الدرس التراثي لغة وبلاغة، واستقرار نمط معرفي جامد كان منشؤه تلك الشُقّة التي صنعتها منهجيتنا التعليمية في تدارس ودراسة الموروث العربي في ميادين اللغة والبلاغة والنقد، حتى أضحى الدرس اللغوي مفرغاً من تخريجاته وتوجيهاته البيانية التي وصلت به – ذات زمن– إلى مصافّ الدراسات المعاصرة، بل كانت له الأسبقية أحياناً في وضع اللبنات الأولى لما تأسست عليه كثير من تلك الدارسات، مع الإقرار بوجود فروق منهجية فرضتها طبيعة كل درس وأبعاده الثقافية والاجتماعية.

وكان من إسهامات ذاك الدرس إدراكه - المبكر – لأهمية السياق اللغوي وغير اللغوي وارتباطه الوثيق بالحدث الكلامي، سواء كان مكتوباً أم منطوقاً، فقد اهتم الدرس التراثي عند المتقدمين بالعلاقات التي تربط أجزاء النص بعضها ببعض، وكان لقضية الإعجاز القرآني الدور الأكبر في تطور ذاك الدرس، ودفع النص القرآني المتقدمين من نحاة ولغويين وبلاغيين ومفسرين وأصوليين للبحث في أسرار تماسك وائتلاف وترابط المعجز القرآني وتحولاته السياقية، وبشكل لا يختلف كثيراً عن الدراسات الأسلوبية واللسانية المعاصرة، تطورت تلك الدراسات واتسعت في الكشف عن

آليات معرفية تميزت بكونها آليات مترابطة ومتكاملة ومن الصعوبة بمكان تحديد ومعرفة الحدود الفاصلة بينها.

وإذا كانت الدراسات الأسلوبية المعاصرة استطاعت أن تمد جسوراً للتواصل بين الدراسات اللغوية والنقد من خلال تأسيس منهج نقدي يقوم على آليات لغوية ولسانية، فإن وفرة القواسم المشتركة بينها وبين الدرس التراثي يجعل الأسلوبية تنسل تدريجياً من المناهج اللغوية لتتفيأ ظلالا جديدة في حقل الدرس اللغوي والنقدي والبلاغي، وهذا ما يتيح المجال لتسمية الأسلوبية بالبلاغة الجديدة، وتطبيق آلياتها وقواعدها على نصوص الخطاب القرآني من خلال رؤية الموروث البلاغي عند المتقدمين وما تميز به من شمولية في الطرح والمعالجة، وذلك سعياً لإخراج المعارف اللغوية والبلاغية من ساحة الإطار النظري المبثوث في مصنفات الأولين من نحاة وبلاغيين وأصوليين ومفسرين، إلى ساحة أرحب وأوسع من التطبيق على نصوص بلغت من البراعة والبلاغة والإعجاز مداها الذى جعل لها قيمة علمية وعملية، وقوة إنجازية واقعية، وعلى الرغم من أن الدراسات الدلالية في الدرس التراثي ظلت تنتمي إلى حقل الدراسات اللغوية والنحوية – أو هكذا بدا للبعض- إلا أنها استطاعت أن تتسلح بآليات البيان والنقد، لتتجاوز بذلك المنهج الوصفي الصرف، وترتاد آفاقاً متطورة من التفكير وقفت بفضلها على عتبات النص محاولة فهم التحولات السياقية بعين الناقد الفاحصة، وإن المتأمل في جهود الدرس التراثي – على اختلاف مشاربها المعرفية - ليدرك تمام الإدراك أن تلك الجهود لم تكن لتتشكل وتستوي على سوقها لولا البحث والتأمل في المعجز القرآني الذي فتح آفاق الموروث على قضايا الدلالية والتواصلية والتداولية والشعرية والجمالية... في وقت مبكر، فكان التعامل مع النص القرآني بوصفه نصاً يتصل بسياق عام هو سياق الموقف الذي يكون فيه، وسياق خاص هو سياق البنية الداخلية للنص، فتمحورت بذلك قراءات نصية ونظرات نقدية تستند

أساساً إلى مرجعية النص، وتقف عنده من حيث اللغة والصياغة والإعراب والترتيب ثم تتجاوز هذه المعطيات ولا تلتزم بها وحدها، لإدراكهم أن الوقوف عند بنية النص قاصر عن تحقيق تحليل نصي جمالي، كما لم تلتزم تلك القراءات بالحكم على جماليات النص وتميزه من خلال مفرداته مجردة عن سياقها، لأن المفردات بعيدة عن سياقاتها ليست سوى تراكم لغوي وكيان محدود، والوقوف عندها يركن بالنص في زاوية من الشكلانية والتجريد، وإنما تكمن جمالية النص وبلاغته وتأثيره في أمرين مهمين، يتجلى أولهما في ترتيب ورصف تلك المفردات في أنساق سياقية داخلية معجمية ونحوية وصرفية وإيقاعية وصوتية، ويكمن الثاني في ما يتعلق بالنص ويرتبط به من سياقات خارجية كسياق المقام وسياق الحال وسياق الموقف، وهذا ما جعل تلك الجهود والدراسات القرائية عند المتقدمين تنجح في تحسس مواطن جماليات النص القرآني من ناحية، وأبعاده الدلالية والتداولية والتأثيرية والوظيفية من ناحية أخرى، ولقد كان من نتائج تلك الجهود صياغة مفاهيم ورؤى فنية، بغية استكناه أقصى الدلالات التي تحملها لغة المعجز القرآني، وما تزخر به من ظواهر بلاغية وأسلوبية، ولعل من أهم تلك المفاهيم مفهوم التحولات السياقية الذي نجد صداه يتردد في الدرس التراثي -تلميحاً وتصريحاً- منذ المحاولات الأولى لوضع لبنات النحو العربي وما اتسمت به من إدراك يدعمه دافع دلالي لإزالة اللبس وكشف دلالات الخطاب في سياقها العام(الحموي، 1993، ج 4، ص 1465 - 1466.)، وصولاً إلى القاعدة البلاغية المشهورة "لكل مقام مقال"، والتي نفترض أنها تعني أن " نأخذ بعين الاعتبار العلاقة الجدلية بين الخطاب وسياقه، فهي العلاقة التي تفرض أن نفهم السياق بالمعنى الذي قد يضيق كثيراً فيعني النص نفسه باعتباره سياقاً، أو يمتد قليلاً فيعني السياق الأدبي الذي ينتمي إليه النص، وقد يتسع أكثر فيعني علاقة النص بالإنسان والمجتمع والتاريخ"(المودن، ط 1، 2014، ص 313) .

ويقف هذا البحث على مفهوم السياق وتجلياته في الدرس التراثي من خلال مدونة هي الأكثر شهرة في المنظومة المعرفية العربية وهي كتاب سيبويه (الكتاب)، لبيان الأثر الكبير للدرس اللغوي في تشكّل البلاغة العربية التي تم إقصاؤه وفصله عنها أولاً، ثم للإسهام ولو بجهد المُقِل في جسر الهوة بين الدرس اللغوي والدرس البلاغي في منهاجنا التعليمي لعودة أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها عودة طبيعية إلى التعامل مع اللغة كنشاط معرفي وإنساني واجتماعي لا يركن إلى التقعيد المجرد بل إلى التفاعلية المنتجة والمنسجمة، بين المرء ولغته من ناحية، وبينه وبين إنتاج ومعارف الآخرين من ناحية أخرى.

السيـــاق لـــغة:

جاء في جمهرة اللغة: السَّوْق: مصدر سقت البعير وغيره أسوقه سَوقاً....."(ابن دريد، ط1، 1987، ج 2 ، ص 835)

وفي مقاييس ابن فارس: سوق: السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدْوُ الشيء، يقال: ساقه يسوقه سوْقاً..."(ابن فارس، 2002، 498.)

وقال الزمخشري:" س و ق: ساق النعم فانساقت....ومن المجاز..... وتساوقت الإبل: تتابعت. وهو يسوق الحديث أحسن سياق، و" إليك يساق الحديث " وهذا الكلام مساقة إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده"(الزمخشري، 1998، ج 1، ص 484.)

وفي اللسان: " السوق: معروف، ساق الإبل وغيرها، يسوقها سوقاً وسياقاً، وهو سائق وسوّاق، شُدد للمبالغة..... وفي حديث أم معبد: فجاء زوجها يسوق أعنزاً ما تساوق، أي ما تتابع، والمساوقة المتابعة كأن بعضها يسوق بعضاً.....

وساق إليها الصداق والمهر سياقاً وأساقه، وإن كان دراهم ودنانير، لأن أصل الصداق عند العرب الإبل وهي التي تساق....."(ابن منظور ط 3، 1994، ج 10، ص 166.) .

وفي المعجم الوسيط: " السياق: المهر، وسياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه...."(المعجم الوسيط، 2008، ج 1، 465)

وفي معجم الهادي:"... وسياق الكلام: أسلوبه الذي يجري عليه، ويقال: عامله بسياق غيره، ويقال: وقعت هذه الكلمة في سياق العبارة، أي وردت مدرجة فيها..."(الكرمي ط 1، 1991، ج 2، ص 408.)

وبالنظر إلى المعنى المعجمي لمفردة السياق في أصل وضعها نلحظ وجود تشابك بين معاني الدلالة المعجمية لمفردة السياق، "فإن من طبيعة المعنى المعجمي أن يكون متعددًا ومحتملًا"(حسان، 2006، ص 323) إلا أن دلالة لفظ السياق المعجمية وإن كانت واسعة ومتعددة، إلا أنها تتخذ مسلكاً دلالياً يحيل على معنى التتابع والتزامن والموائمة، وهذه الإحالة المعجمية دليل على أن المستوى العادي لإدراك علاقة الأشياء بالكلمات في اللغة لا يضمر أكثر من دلالة مطابقة الشيء لصورته الذهنية، على اعتبار أنها علاقة دالة عليه، ولو أن تفكيرنا اقتصر على التطابق المعجمي فحسب لافتقرت المفاهيم لكثير من التغيرات والتطورات التي تميزها على الدوام(بناني، 2002، ص 6.).

وباستقراء المعنى المعجمي للسياق نلاحظ سبب تطور هذا المعنى من الإشارة إلى التتابع والاقتران في مواقف مادية محسوسة، إلى ولوجه عالم المعنى للدلالة على معاني الترتيب والترابط ليتناسب مع المقام ومقتضيات الأحوال، وهو ما تبلور فيما بعد في المنظومة المعرفية العربية وتموضع في ميادين متعددة منها، وكانت حالة التماهي مع المعجز القرآني هي الدافع الأساسي لتطور هذا المفهوم بحثاً عن خصائص نظم وترتيب النص القرآني وتذوقها وإدراك تحولاتها السياقية المختلفة.

السيـــاق اصطـــلاحاً:

والسياق في المفهوم الاصطلاحي العام هو "النظم اللفظي للكلمة، وموقعها من ذلك النظم...والسياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب، بل والقطعة كلها والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل –بوجه من الوجوه- كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها أهميتها البالغة في هذا الشأن"(أولمان، 1975، ص 57).

وبهذا ندرك أن السياق اصطلاحاً هو كل ما يزيل اللبس والغموض عن النص، ويضيء جوانبه الدلالية من خلال معطيات لغوية وغير لغوية في شكل ينتظم " القرائن الدالة على المقصود من الخطاب سواء كانت القرائن مقالية أو حالية، كما أنه هو ما يحول دون تطرق اللبس إلى المعنى عندما يسمح التركيب بورود الاحتمالات المتعددة المعنى"(حسان ،ط 1، 1993، ج 1، 221-222.)

ويعرفه آخرون بأنه: " مجموع النصوص التي تسبق و/ أو تواكب وحدة تركيبية معينة وتتعلق بها الدلالة، حيث يمكن له أن يكون صريحاً أو لسانياً، ويمكن أن يكون ضمنياً، ،ويتميز في هذه الحالة بأنه سياق خارجي لساني أو مقامي"(أوشان، 2000، ص 31 – 32)

فالسياق "إطار عامّ تنتظم فيه عناصر النّصّ ووحداته اللّغويّة، ومقياس تتصل بوساطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النص للقارئ، ويضبط السياق حركات الإحالة بين عناصر النص، فلا يُفهم معنى كلمة أو جملة إلا بوصلها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السياق"(بودرع ، 2008، ص 43.)، وبذلك يكون السياق هو الصورة الكلية التي تنتظم الصور الجزئية، في العبارات المتشابهة، التي لا سبيل لمعرفة وتحديد ما يقع بينها من فوارق دقيقة إلا بواسطة سياقها اللغوي أو الحالي، فكل سياق للألفاظ يخمل ضرباً

من المعاني بتفاصيله وجزئياته المتباينة، ومن خلاله يمكن إدراك "كافة القرائن التي تسهم في عملية الفهم، لغوية كانت أم غير لغوية"(حمادي،1994، ص 146.)

ومن التعريفات السابقة للسياق نعي تماماً أننا إزاء مصطلح مشحون بالدلالة اللسانية والرمزية، وبمزيد من التأمل تتجلى علاقة هذا المصطلح بمجموعة من الميادين المعرفية، بغية الوصول إلى المعنى في بنية الخطاب الكلية، "فكل كلمة أو جملة توضع في إطار أو نسق معين يعتبر هذا النسق سياقاً لها، فالمفردة لها سياقها، والتركيب له سياقه، والنص له سياقه، وكل هذه السياقات تشتبك لتنضوي تحت السياق العام للنص"(الغويل،2011، ص 17)

السيـــاق في الدرس التراثي:

ارتبط مفهوم السياق في الدرس التراثي بممارسات وجهود معرفية عديدة تنوعت بين علوم اللغة والبلاغة والنقد وعلم التفسير والفقه وأصول الفقه، وكلها تطورت بوحي وتأثير من قضية الإعجاز القرآني، وفرضت حضور معطيات عامة تتعلق بالسياق كآلية إجرائية لها بالغ الأهمية في سبر أغوار النص وتحقيق الانسجام النصي، وقدمت قراءات ثرية منسجمة ومتماسكة، ساهمت في خلق مفاهيم متطورة لرسم العلاقة بين معالم النظام اللغوي للمعجز القرآني والسياقات الداخلية والخارجية التي تكتنف النص، معتبرين هذا الأمر أصلاً من أصول وصف ظاهرة الإعجاز وتفسيرها، وأصلاً لما يمكن أن توصله الرسالة اللغوية في شكلها التداولي، وتنوعت تعليقاتهم حول السياق في إطار جهودهم وأبحاثهم العلمية المختلفة.

وسيعمد البحث إلى الوقوف عند نموذج قرائي من الدرس التراثي في معالجة مفهوم السياق وتأثيراته المختلفة عبر القرائن الحالية والمقامية على النص.

مفهوم الســـياق عند سيبويه:

يعتبر إنتاج سيبويه المعرفي المتمثل في كتابه (الكتاب) أول أثر نحوي يمثل نضج التجربة النحوية ويهتم بالتراكيب وكشف خصائصها وعلاقاتها مع معانيها، ولم يقتصر سيبويه في قراءاته النحوية على الفهم الشكلي الذي يهتم بأواخر الكلم والحالة الإعرابية والبنائية، وإنما كان يقصد بالنحو انتحاء سبيل العرب في بنية الألفاظ والتراكيب وأساليبها وما يستتبعه ذلك من اهتمام بعلاقة المقام ومقتضى الحال بالنص، وهو ما يلتقي مع مفهوم النظرية التواصلية المعاصرة، ونجد صداه لا سيما عند ياكبسون ونظريته في التواصل، والتي قامت على أن كل صيرورة لسانية أو فعل تواصلي لفظي متكون من عوامل عدة تعمل لتحقيق العملية التواصلية "وأن المرسل يوجه رسالة إلى المرسل إليه، ولكي تكون الرسالة فاعلة، فإنها تقتضي، بادئ ذي بدء، سياقاً تحيل عليه، سياقا قابلاً لأن يدركه المرسَل إليه، وهو إما أن يكون لفظياً أو قابلاً لأن يكون كذلك؛ وتقتضي الرسالة بعد ذلك، سنناً مشتركة، كلياً أو جزئياً، بين المرسل والمرسل إليه ..... وتقتضي الرسالة أخيراً، اتصالاً وربطاً نفسياً بين المرسل والمرسل إليه، يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه"(ياكبسون، 1988، ص 26 بتصرف)، وهذه العناصر التي وضعها ياكبسون هي ما يمكن رصده في فكر سيبويه، ومن ذلك ما يتعلق بمفهوم السياق بوصفه إطاراً عاماً يشارك في توجيه آليات مناسبة لبلوغ الرسالة بين طرفي العملية التواصلية.

ومع أن سيبويه لم يذكر مصطلح السياق في كتابه ولم يخصص له باباً من أبوابه، وذلك بناء على طبيعة اللغة الاصطلاحية وطبيعة التأليف في عصره، إلا أن إدراكه لمفهوم السياق كان واضحاً وجلياً من خلال احتكامه إليه في معرض قبول أو رفض استعمالات اللغة، ووعيه بأن اللغة لا تُفهم إلا في ضوء السياقات المحيطة بالناطقين بها سواء في مستواها الداخلي التركيبي أو مستوى سياقاتها الخارجية كالمقام والقرائن ومقتضى الحال وغيرها.

ويولي سيبويه أهمية كبيرة للسياق في مطلع كتابه، بتأكيده على معيار الحسن والقبح في السياق اللغوي الداخلي فيما يتعلق بصحة وسلامة التراكيب، ويعطي هذين المعيارين بعداً قيمياً بإدراكه لتأثير السياق، فيقول: " هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة: فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتُك أمْسِ وسآتيك غداً، وسآتيك أمس، وأما المستقيم الكذب فقولك: حملتُ الجبلَ، وشربتُ ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيداً رأيت، وكي زيداً يأتيك، وأشباه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمسٍ"(سيبويه، 1988، ج 1، ص 25 -26.)، وهذا التفصيل الذي لا ينمّ إلا عن ذات واعية بمفهوم السياق والترابط والتتابع والتلاؤم في الحدث اللغوي يكشف عن إدراك مبكر لأهمية السياق في شكله التداولي، ولعل سيبويه هنا قد سبق تشومسكي الذي وضع في نظريته النحوية القواعد التوليدية التي تشترط موافقة المنطوق في أي لغة مقتضيات النحو بما يحقق دلالة التركيب، ويخفق في توليد أي دلالة إذا كانت التراكيب لا تمثل جملاً صحيحة(عبد الدايم، 2006، ص 28)

ولذلك يرى سيبويه أن الركون إلى ظاهر اللفظ والاعتماد عليه لا يكفي في البيان والإفهام، لأن اللفظ قد يكون واحداً مع اختلاف المعنى فيقول: "اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين"(سيبويه، 1988، ج 1، ص 24)، وهو ما يعنى أن السياق هو ما يحدد ملامح هذا التوافق والاختلاف، وأن المخاطب والمخاطَب هما من يعملان على تشكله في عملية التواصل والإبلاغ، وهو ما يشرحه سيبويه بقوله: " فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: جلس وذهب، واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو: ذهب

وانطلق، واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك: وجَدتُ عليه من المَوْجِدة، ووجَدتُ إذا أردت وجِدان الضّالَّة، وأشباه هذا كثير"(نفســـه)

ويراعي سيبويه البعد الدلالي للسياق من خلال استنطاق البناء الداخلي للتراكيب، ويهتم بما تسميه الدراسات المعاصرة بالبنية العميقة، ويتجلى ذلك من خلال قوله: "يقول الرجل: أتاني رجل، يريد واحداً في العدد لا اثنين فيقال: ما أتاك رجل، أي أتاك أكثر من ذلك، أو يقول أتاني رجل لا امرأة، فيقال: ما أتاك رجل، أي امرأة أتتك، ويقول: أتاني اليوم رجل، أي في قوّته ونفاذه، فتقُول: ما أتاك رجل، أي أتاك الضعفاء، فإذا قال: ما أتاك أحدٌ صار نفياً عامّاً لهذا كله"(المصدر نفســه: ج 1، ص 55).

وما يرمي إليه شيخ النحاة هنا أن جملة "ما أتاك رجل" تشير إلى عدة معانٍ والسياق هو من يحدد تلك المعاني، فهي تشير إلى العدد أحياناً، وإلى الجنس أحياناً أخرى، كما تشير إلى الحالة في بعدها الدلالي، أي ما أتاك رجل قوي بل أتاك الضعيف من الرجال، وكل هذا يحتكم فيه المتلقي إلى السياق والحال والقرائن المتعلقة بالحدث الكلامي لإزالة اللبس، وهو ما يؤكد أن رواد التفكير النحوي المتقدمين – وفي مقدمتهم سيبويه – "لم يقتصروا على النظر في بنية النص اللغوي، كما لو كان شكلاً منعزلاً عن العوامل الخارجية التي تلفه وتحيط به، وإنما أخذوا مادتهم اللغوية - على ما يبدو من معالجتهم لها - على أنها ضرب من النشاط الإنساني الذي يتفاعل مع محيطه وظروفه، كما فطنوا إلى أن الكلام له وظيفة ومعنى في عملية التواصل الاجتماعي، وأن هذه الوظيفة وذاك المعنى لهما ارتباط وثيق بسياق الحال أو المقام"(بشر1997، ص 66)

وفي توجيهه لجملة (ضرب عبدُ الله زيداً) يقول سيبويه: " فإن قدّمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيداً عبدُ الله؛ لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت

به مقدماً، ولم ترد أن تشغل الفعل بأوّلَ منه وإن كان مؤخراً في اللفظ، فمن ثَم كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدّماً، وهو عربي جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يُهمّانهم ويعنيانهم"(سيبويه ، ج 1، 34)

فهو في هذا النص يعتمد على دلالة العلامة الإعرابية في بيانها للفاعل والمفعول تقديماً وتأخيراً، وهذه العلامة الإعرابية من عناصر السياق اللغوي في مثل هذه الجمل التي تخالف الرتبة الأصلية، ويربط سيبويه هذا التقديم بإرادة المتكلم، ويشير سيبويه إلى أن هذه التحولات السياقية بالخروج على الرتبة جيدةٌ في العربية، لأنها تعمل على إلقاء ظلال على المعنى بقصد العناية والاهتمام، وهو ما أكسب اللغة قدرة على التوسع في الكلام لاعتبارات فنية يحكمها السياق، فهذه التحولات في الرتبة لها قصد "يتصل بالمعنى اذا لم يكن هو معناها عند كثير من الوصفيين، فقد رأى دي سوسير مثلاً بخصوص دلالة الوحدات أن الوحدات نفسها ليس لها دلالة أو قيمة إيحائية بل تتولد قيمتها من مخالفة الوحدة لغيرها، كما قرر فيرث أن الوحدة النحوية تكتسب قيمتها من علاقتها بالوحدات أو الأصناف الأخرى"(عبد الدائم: مرجع سابق، ص 206.)

ويمضي سيبويه في مزيد اهتمامه بهذا التوسع في اللغة عبر تحولات السياق اللغوي ويتوقف عند قوله تعالى: "والحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ والذَّاكِرِينَ اللهَ كثيراً والذَّاكِرَاتِ"(سورة الأحزاب: من الآية 35) كشاهد من شواهد الحذف لعلم المخاطب فيقول: " فلم يُعمِل الآخِر فيما عمل فيه الأول استغناءً عنه، ومثل ذلك: ونَخلعُ ونَترك من يَفْجُرك"(سيبويه ، ج 1، 34)

وشبيهٌ من ذلك كلامه عن الاستغناء عن تكرار لفظ "كلّ" في قول الشاعر:

أكُلَّ امرئٍ تحسبين امرأً ونارٍ تَوَقَّدُ بالليلِ نارا

بجر لفظ "نار"، وتقدير الكلام "وكلَّ نارٍ" وذلك: " لذكرك إياه في أول الكلام، ولقلة التباسه على المخاطب"(المصدر نفسه: ج 1: ص 66)

ويأتي اهتمام سيبويه بالحذف أو الإضمار على خلفية أنهما يشكلان تحولاً سياقياً لغوياً يتحقق وجوده من خلال المعنى، وليس مجرد تلاعب بالألفاظ يجوز فعله تارة وتركه تارة أخرى، فيقول في موضع آخر: "ومن ذلك قولك، إذا رأيت رجلاً متوجهاً وِجهة الحاجّ، قاصداً في هيئة الحاجّ، فقلت: مَكّةَ وربّ الكعبة. حيث ركنت أنه يريد مكة، كأنك قلت: يريد مكة والله.

ويجوز أن تقول: مكة والله، على قولك: أراد مكة والله، كأَنك أخبرت بهذه الصفة عنه أنه كان فيها أمس، فقلت: مكة والله، أي أراد مكة إذ ذاك"(المصدر نفسه: ج 1، ص 257)

ويتضح من تحليل سيبويه أن الإضمار يتكأ فيما يتكأ عليه على السياق اللغوي الذي يتفاعل معه المتلقي، ومن ذلك قوله تعالى: " بل ملة إبراهيم حنيفاً"(سورة البقرة: من الآية 130)، أي بل نتّبعُ ملّة إبراهيم حنيفاً، كأنه قيل لهم: اتّبِعوا، حين قيل لهم: " كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى"(سيبويه ج 1، ص 257).

ويقول سيبويه معتمداً على السياق في موضع آخر: "ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى جدّه: " واسْأَلِ الْقَرَيةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا والعِيرَ الّتِي أقْبَلْنَا فِيهَا"(سورة يوسف: من الآية 82) إنما يريد: أهلَ القرية، فاختصر، وعمل الفعل في القرية كما كان عاملاً في الأهل لو كان هاهنا، ومثله:" بَلْ مَكْرُ اللّيلِ والنّهَارِ"(سورة سبأ: من الآية 33)، وإنما المعنى: بل مكركم فى الليل والنهار ....."(سيبويه ج 1، ص 212)

يلجأ سيبويه هنا إلى آلية السياق لفهم النص القرآني عبر حذف مفردات بذاتها يدل عليها سياق التركيب، مما يشكل اهتزازاً ضمنياً في المستويات الدلالية السياقية، ويكشف عن السر الجمالي للتراكيب عبر انفتاح المعنى على آفاق لا تفصح عنها بنية الشكل الظاهرة في السياق، وهو ما احتفت به البلاغة العربية في فترة لاحقة على يد روادها وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني للاعتبارات الجمالية والفنية التي تحدثها التحولات السياقية في اقتصاد اللغة بالحذف والإضمار والاستتار، ما جعلها من أكثر القضايا اللغوية والبلاغية – جنباً إلى جنب مع قضية المجاز-إثارة للجهود القرائية عند المتقدمين بين مؤيد لوجودها في النص القرآني ومعارض لها(انظر حول تلك القراءات: عباس،2009) .

وإضافة إلى السياق الثقافي كسياق خارجي متعلق بالنص، يظهر من توجيهات سيبويه وعيه بالسياق الخارجي المتعلق ببيئة الحدث الكلامي، وهي البيئة التي تحدث عنها فيرث ومالينوفسكي وآخرون في النظرية السياقية المعاصرة وما يرتبط بها من سياق زماني ومكاني وثقافي يتدخل في توجيه النص وربط علاقة بينه وبين المتلقي، كاستشهاده – سالف الذكر – بوقت ارتداء ملابس الحج، وهو ما تطلق عليه الدراسات المعاصرة سياق الحال.

لقد أدرك سيبويه أن العلاقة بين النص والسياق علاقة عضوية، وأن التحولات السياقية تتفاعل مع النص داخلياً وخارجياً بغية الوصول إلى شكلها التداولي، فيقول في موضع آخر من مدونته الثرية بتوجيه الخطاب وتحليله: "ومما ينتصب في هذا الباب على إضمار الفعل المتروك إظهارُه: "انتَهُوا خَيراً لّكُمْ"(سورة النساء: من الآية 171)، و "وراءَكَ أَوْسعَ لك "، وحسبُك خيراً لك، إذا كنتَ تأمر....

وإنما نصبتَ خيراً لك وأَوسعَ لك، لأنك حين قلت: " انْتَه " فأنت تريد أن تخرجه من أَمرٍ وتدخله في آخر، وقال الخليل: كأنك تحملُه على ذلك المعنى، كأنك قلتَ: انْتَهِ وادخل فيما هو خيرٌ لك"(سيبويه ، ج 1، ص 283... وانظر: ج 3، ص 153.).

وتوجيهات سيبويه وتخريجاته تبين أنه كان يدرك الأثر الذي يحدثه السياق للوصول إلى المعنى، وأنه منذ ذاك العهد المبكر" كان يفزع إلى السياق والملابسات الخارجية، وعناصر المقام، ليرد ما يعرض من بناء القاعدة اللغوية من ظواهر مخالفة إلى أصول النظام النحوي، طالباً للاطراد المحكم، وهو يوافق ما صدر عنه في الكتاب ملحوظات كثيرة، مما تنبني عليه الوظيفة ومناهج التوسيع، أو اللغويات الخارجية بعبارة دي سوسير، كما أشبهت ملحوظاته ملحوظات اللغويين"(الموسى، 1987، ص 88.)

وفي إشارة أخرى لإدراك سيبويه بالسياق الخارجي المتعلق بالنص يقول: "وزعم أبو الخطاب أَن مثله قولك للرجل: سلاماً، تريد تسلُّماً منك، كما قلت: براءةً منك، تريد: لا ألتبس بشيء من أمرك"(سيبويه ج 1، ص 324) ، ثم يستطرد فيقول: " وزعم أن أبا ربيعة كان يقول: إذا لقيتَ فلاناً فقل له سلاماً، فزعم أنه سأله ففسّره له بمعنى براءةً منك، وزعم أن هذه الآية: "وإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً"(سورة الفرقان: من الآية 63) بمنزلة ذلك، لأن الآية فيما زعم مكية، ولم يؤمرِ المسلمون يومئذ أن يسلِّموا على المشركين، ولكنه على قولك:" براءة منكم " وتسلُّماً، لا خير بيننا وبينكم ولا شر"(سيبويه ، ج 1، ص 325)

وهذا التوجيه السياقي يعكس وعي سيبويه بالسياق الخارجي المصاحب للنص القرآني، وكأنه يشير إلى أن لفظ "سلاماً" قد خرج عن سياقه المعهود هنا ولم يأت بالمعنى الظاهر المعروف، بل هو بخلاف

ذلك تماماً، وانفتاح النص على هذه القراءة التأويلية التي يقدمها سيبويه (في مناقشة رؤية سيبويه للآية وتأويله لها انظر: القرطبي د.ت.ط، ج 13، ص 70.) هو نتيجة لوعيه بالتحول السياقي في بنية النص القرآني.

ومثل ذلك قوله تعالى:" أَمِ اتَّخذ ممَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالبَنِين"(سورة الزخرف: الآية 15) فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون: أن الله عز وجل لم يتخذ ولداً، ولكن جاء حرف الاستفهام ليبصّروا ضلالتهم، ألا ترى أن الرجل يقول للرجل: آلسعادة أحب إليك أم الشقاء؟ وقد علم أن السعادة أحب إليه من الشقاء، وأن المسؤول سيقول: السعادة، ولكنّه أراد أن يبصّر صاحبه وأن يعلّمه"(سيبويه: ج 3، ص 173.)

وبمثل هذا التوجيه السياقي المحتكم إلى المقام الخارجي يقول سيبويه في قوله تعالى:" تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين، أم يقولون افتراه...."(سورة السجدة: من الآية 1 - 2) :فجاء هذا الكلام على كلام العرب قد علم تبارك وتعالى وذلك من قولهم، ولكن هذا على كلام العرب ليعرّفوا ضلالتهم"(سيبويه: نفسه)

وهذا الوعي بتأثير السياق في النص من خلال تجاوز البنية التركيبية إلى الملابسات التي تحيط بالنص وقت الحدث الكلامي هو ما طرحته الدراسات اللغوية والنقدية المعاصرة من أن المعنى يُفسّر باعتباره وظيفة في سياق تركيبي أو سياق موقفي عام، ويشير كذلك إلى أسبقية سيبويه في العناية بما تسميه النظرية السياقية "بسياق الموقف" الذي استخدمه مالينوفسكي، ثم طوره فيرث في نظريته السياقية ورأى أن سياق الموقف يتعلق "بالحدث اللغوي، والحدث غير اللغوي، والأشياء الوثيقة الصلة بالموضوع"(علي، 1993، ص 102.. بتصرف)، كما يكشف وعي سيبويه بأهمية

وفاعلية السياق الخارجي في تحديد معالم المعنى وإدراكه للمفهوم الذي تشير إليه نظريات اللغة المعاصرة، فالوصف الملائم للأبنية النصية جعل الدارسين يدركون أن القراءة " ليست مجرد وسيلة مادية للاتصال، بل هي التي تحدد كيفية هذا التواصل، وتبين عندئذ أن المداخل التي كان يقال عنها أنها خارجية ربما أصبحت هي الوحيدة التي نتمكن عن طريقها من تحديد جمالية النصوص المشتركة في أبنيتها اللغوية"(فضل، أغسطس 1992، ص 70).

ويطالعنا سيبويه في موضع آخر يجمع فيه بين التوجيه اللغوي والعناية بسياق النص فيقول في توجيه هذا الأسلوب الذي يحكمه السياق الاجتماعي المحيط بالحدث الكلامي للمتكلم: " أتميميّاً مرة وقيسيّاً أخرى!

وإنما هذا أنَك رأيت رجلاً في حال تلوّن وتنقّل، فقلت: أتميمياً مرّةً وقيسياً أخرى، كأنك قلت: أتحوّل (أي أتتحول) تميمياً مرة وقيسياً أخرى، فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له، وهو عندك في تلك الحال في تلوُّن وتنقُّل، وليس يسأله مسترشداً عن أمر هو جاهل به ليفهّمه إيّاه ويُخبره عنه، ولكنه وبّخه بذلك..... فلم ترد أن تخبر القوم بأمر قد جهلوه، ولكنك أردت أن تشتمه بذلك!"(سيبويه ج 1، ص 343 – 345، وما بين قوسين داخل النص زيادة من الباحث.)

وهذا النص دلالة ساطعة على نباهة سيبويه وعنايته بالتحولات السياقية عبر اختيار نظام تعبيري دون غيره في الحدث الكلامي، فسياق هذا الحدث يغدو عاملاً رئيسياً في تشكيل صياغة لفظية تتلاءم مع المعنى وتغذيه، فليس المراد – حسب سيبويه – الاستفهام في هذا المقام، إلا أن فكرة التركيب هنا تبنى على أصل غائب أو محذوف ينبغي استحضاره لإدراك المعنى، وهذا ما يتشابك مع مقولات تشومسكي التوليدية المعاصرة التي تركز على قدرة المتكلم على إنشاء جمل تقوم على الحدس

والتخمين في البنية العميقة المؤدية إلى المعنى(انظر: عبد التواب، ط 3، 1997، ص 187)، واختلاف المعنى الذي يتحسسه سيبويه من السياق لا يصبح تبعاً لسياق الحال "نتيجة لوجهة نظر نسبية تعود إلى اختلاف العادات أو التقاليد الإنسانية، وإنما هو محصلة لانفتاح الأثر الأدبي نفسه، وقابليته بطبيعة بنيته لمعانٍ متعددة"(فضل:، ط 1، 1998، ص 200.. بتصرف يسير.).

ومن التحولات السياقية القريبة مما سبق ذكره إشارة سيبويه إلى آلية التنغيم، وهو نمط سياقي ينتقل بالنص من المعنى السطحي للبنية إلى معناها العميق عبر توظيف السياق توظيفاً تداولياً مؤثراً، فيقول في هذا الشأن: " وقال جرير:

أعبْداً حَلّ في شُعبَى غريباً ألؤماً لا أبا لك واغترابا!

يقول: أتلؤُم لُؤْماً وأتغترب اغترابا، وحذف الفعلين في هذا الباب، لأنهم جعلوه بدلاً من اللفظ بالفعل، وهو كثير في كلام العرب، وأما عبداً فيكون على ضربين: إن شئت على النداء، وإن شئت على قوله: أَتفتخر عبداً، ثم حذف الفعل "(سيبويه، ج 1، ص 339.).

والتنغيم السياقي هو آلية صوتية يلجأ إليها المتكلم للتعبير عن معنى انفعالي كالاستنكار أو السخرية أو الاستهجان أو غيرها من الدوافع النفسية المصاحبة للنص، وينتقل الحدث الكلامي بواسطة هذا السياق إلى معنى مختلف عن المعنى الظاهر كانتقاله من النداء إلى الاستفهام ويصبح التنغيم ظاهرة موقعية في السياق، "وهذا الجانب الإفصاحي يغلب عليه الطابع التأثري، ومن أمثلته التعجب والمدح والذم وخوالف الإحالة وخوالف الأصوات، وكل هذه تتحقق غالبًا في صورة صيحات انفعالية تأثرية"(حسان، مرجع سابق، ص 309.).

وفي توظيف السياق الخارجي المحيط بالحدث الكلامي يستطرد سيبويه في موضع آخر فيقول:

"فأما الاسم غير المندوب فينبّه بخمسة أشياء: بيا، وأيا، وهَيا، وأي، وبالألف، نحو قولك: أحارِ بن عمرو، إلا أن الأربعة غير الألف قد يستعملونها إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخى عنهم، والإنسان المعرض عنهم، الذي يرون أنه لا يُقبل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستثقل، ....وقد يجوز لك ان تستعمل هذه الخمسة إذا كان صاحبك قريباً منك، مقبلاً عليك، توكيدا"(سيبويه ، ج 2، 230.)

فالسياق الخارجي المرتبط بالدلالة الصوتية التي تحكم الخطاب يساهم في تباين المعنى، فالتركيب من حيث الشكل لا يتغير فيه شيء وإنما المتغير هو الحال المصاحبة للخطاب بين طرفيه، وهو ما يشير إليه سيبويه في استعمالات الصوت في مواقف معينة لا ترتبط بالنص كبنية سطحية بل بالسياق الذي يحكمه.

ويلح سيبويه على مفهوم السياق المقامي متجاوزاً ظاهر النص التركيبي في إشارته إلى أسماء سور النص القرآني إشارة لا تخلو من الاحتكام إلى سياق المقام والحال وما يتعلق به من أبعاد عقدية ودينية فيقول:" هذا باب أسماء السُّور تقول: هذه هودٌ كما ترى، إذا أردت أن تحذف سورة من قولك: هذه سورة هود، فيصير هكذا كقولك هذه تميمٌ كما ترى.

وأما نوح بمنزلة هود، تقول: هذه نوح، إذا أردت أن تحذف سورة من قولك: هذه سورة نوح، ومما يدلك على أنك حذفت سورةً، قولهم: هذه الرحمن. ولا يكون هذا أبداً إلا وأنت تريد: سورة الرّحمن....."(المصدر نفسه: ج 3، ص 257).

تعكس توجيهات سيبويه البيانية فيما يتعلق بسياق المقام وسياق الحال إدراك الدرس التراثي المبكر لكثير من قضايا الأسلوبية واللسانية المعاصرة كالوظيفية والتداولية وغيرها، عن طريق التشديد

على دور المتلقي وإفساح المجال أمامه لاستحضار الغائب الدلالي في النص من خلال الوعي بفاعلية التحولات السياقية ودورها في فهم النص عبر قراءة منتظمة مرتبطة بما تسميه نظريات النقد المعاصر بأفق الانتظار.

والواقع أن سيبويه في إشاراته المتعددة إلى التحولات السياقية لم يكن يتوقف عند ظاهر المفردات والتراكيب في حد ذاتها، ولكنه يتخذ منها منطلقاً إلى ما هو أعمق للوصول إلى دلالاتها البيانية، ودورها في تأدية رسالة النص أو الحدث الكلامي لإيصالها إلى المتلقي، ويبين مدى ارتباط السياقات بأنواعها المختلفة بالدلالة النصية، ومدى فاعلية تلك السياقات في إعادة إنتاج النص، وإذا "كانت الدلالة تستخدم مفهوما مجردا بالغ الجدوى هو الواقع، أي العالم الممكن، فإن التداولية تستخدم مفهوماً تجريدياً يدل على الموقف التواصلي هو (السياق)"(فضل، مرجع سابق، ص 25).

خـــــــــاتمة:

وجملة القول ختاماً لهذه القراءة الانتقائية التي تعترف بعدم إحاطتها بكافة تفاصيل اهتمام مدونة سيبويه القرائية بالسياق، جملة القول أن سيبويه عمل في (كتابه) على رصد التحولات السياقية التي تكتنف النص وأبعادها التداولية، وأدرك أن السياق بأنماطه الداخلية والخارجية ركيزة أساسية من ركائز اللغة والبيان لعلاقته الوثيقة بكل أجزاء العملية التواصلية من النص إلى المتكلم وصولاً إلى المتلقي، وتميزت تحليلاته وتوجيهاته بالمنحى التداولي والحس البياني ما يدعم قول بعض الباحثين:" يشير بعض اللغويين بخصوص وجود النظرية في تراثنا اللغوي فيقول: أغلب الظن أن

النظرية موجودة ولكنها تحتاج الى الكشف عنها، فليس من المعقول أن يقوم هذا البناء الضخم في الدرس اللغوي العربي دون نظرية"(عبد الدايم،مرجع سابق، ص 235.) .

وتعكس رؤية سيبويه وعياً مبكراً بأهمية السياق في ضبط عملية البيان والإفهام وإلغاء الفوضوية الفكرية التي تترتب على إلغاء دوره في فهم النصوص، ولذلك كان السياق ميداناً رحباً لدراسات المفسرين والأصوليين والبلاغيين حفاظاً على نسق النص القرآني وحماية له من تداخل التأويلات وشططها.

ولقد مهدت تحليلات سيبويه في العناية بالسياق كمفهوم يقوم عليه النظم والترتيب والترابط لظهور أهم نظرية بلاغية عرفها الدرس التراثي وهي نظرية "النظم" التي وضعها وصاغها وشاد بنيانها عبد القاهر الجرجاني، وقامت على قاعدة لغوية بلاغية عنوانها العريض "توخي معاني النحو".

المصادر والمراجع:

- القرآن الكـــريم

1. ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح/ شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2002.
2. ابن منظور: لسان العرب، بعناية اليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، ط 3، 1994.
3. إدريس حمادي: الخطاب الشرعي وطرق استثماره، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1994.
4. انظر: عز العرب لحكيم بناني: الظاهراتية وفلسفة اللغة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002.
5. تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط 5، 2006.

6. تمام حسان: البيان في روائع القرآن –دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 1993.

7. جمهرة اللغة، ابن دريد، تح/ رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987.

8. حسن المودن: بلاغة الإقناع – نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب – دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط 1، 2014.

9. حسن سعيد الكرمي: الهادي إلى لغة العرب، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1991.

10. رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1997.

11. رومان ياكبسون: قضايا الشعرية، تر/ محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1، 1988.

12. الزمخشري: أساس البلاغة، تح/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.

13. ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، تر/ كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1975.

14. سيبويه: الكتاب، تح/ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1988.

15. صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة 164، أغسطس 1992.

16. صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1998.

17. عبد الرحمن بودرع :منهج السياق في فهم النص، مكتبة الثقافة، الدار البيضاء،2008.

18. علي آيت أوشان: السياق والنص الشعري – من البنية إلى القراءة -، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 2000.

19. فضل عباس: لطائف المنان وروائع البيان في نفي الزيادة والحذف في القرآن، دار النفائس، عمان، الأردن، ط 1، 2009.

20. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الشام للتراث، بيروت، د.ت.ط.

21. كمال بشر: علم اللغة الاجتماعي – مدخل - ، دار غريب، القاهرة، 1997.

22. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 4، 2008.

23. محمد عبد العزيز عبد الدايم: النظرية اللغوية في التراث العربي، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط 1، 2006.

24. محمد محمد يونس علي: وصف اللغة العربية دلالياً – دراسة حول المعنى وظلال المعنى -، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، 1993.

25. المهدي إبراهيم الغويل: السياق وأثره في المعنى – دراسة أسلوبية - ، دار الكتب الوطنية، بنغازي. ليبيا، 2011.

26. نهاد الموسى: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1987.

27. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تح/ إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 1، 1993.